# أثر العمل التطوعي على الإيمان
## دراسة عقدية تأصيلية

د. أسماء محمد توفيق بركات *

سلم البحث في ٢٠١٢/٧/٢٥م بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ٢٠١٢/٨/٢٨م

**ملخص البحث:**

تحقيق مفهوم الإيمان في ضوء نصوص الكتاب والسنة يظهر مكانة العمل في الدين، ومع بروز أهمية العمل في العقيدة كانت الحاجة لإبراز مكانة العمل التطوعي من الإيمان، فالتطوع في الإسلام له مفهوم وجوانب تشمل مناحي التدين التي تمثل بمجموعها بناء هذا الدين، ومن خلال نصوص الشرع وآثار السلف وأقوال العلماء، أبرزت مكانة العمل التطوعي من الإيمان في تحقيق مفهومه وكينونته التشعبية ظاهرة وباطنة؛ والتي استقرت في عقائد المؤمنين، وظهرت في مسلكهم التعبدي، حين كان معتمدهم في الدين التجرد في الاتباع وتحقيق الطاعة، فظهر أثر العمل التطوعي على أحكام الإيمان زيادة ونقصا، وما ارتبط به من أحكام دنيوية وأخروية في الوعد والوعيد. وقد كانت إرادة التأصيل العقدي لإبراز أهمية العمل التطوعي في تحقيق مفهوم الإيمان هي المعول عليها في البحث بعيدا عن الخلافات المذهبية التي أبعدت عقائد المسلمين عن نهج السلف الصالح، الذين كان الوحي هو برهان معتقدهم وأصل مذهبهم ومعين منهجهم.

**Abestract:**

To realize the concept of faith, through the light of Islamic precepts, we must accomplish many kinds of continuous work. Then, the charity act keeps a high position in our creed profile. The charity works occupy the most important faces of the religiosity which is considered the pillar of our religion. I try, through the texts of the Sharia and through our heritage of the Islamic scholarly opinions, to put in light the charity act as a completive element to belief. Secretly and openly charity acts

* أستاذ مساعد بقسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين، بجامعة أم القرى .

was for our predecessors indispensable factors of their faith and their religious behavior; because they are working in a serious atmosphere of obedience and impartiality. In this atmosphere, the charity acts gave good effects to their dogma and their mundane works. Our research is to consolidate the theoretical aims of charity acts out of the doctrinal divergences which push us fare of our predecessor way. In fact, the revelation was for our predecessors the fundamental argument of their faith, their doctrine and their path.

**المقدمة:**

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد فإن الحديث عن تأصيل العمل التطوعي من وجهة إيمانية ذو أهمية بالغة، وذلك لما يضفي عليها من أبعاد تأصيلية، تبرزها من جهة مكانة العمل التطوعي العقدية، فإن وضوح هذا الأصل يعمق لدى المسلم أهمية العمل التطوعي لأن ارتباطه بالعقيدة يلحقه بها فأهميته حينئذ تنبع من أهمية العقيدة الإسلامية ذاتها.

والإيمان إن كان معبرا عن العقيدة أو أحد محاورها العميقة الركيزة فإن بيان أثر العمل التطوعي عليه يوثق ارتباطه به أولا ويحمل المسلم على التزامه والعمل به جاهدا من استطاع، وفي هذا البحث لبيان أهمية العمل التطوعي في تحقيق الإيمان، وسأحاول جاهدة محورة مواضيعه في ثلاثة أصول تصب أطرها لإبراز مكانة العمل التطوعي في العقيدة ببيان أثره على الإيمان في عقيدة المسلم.

فإن الإيمان بمفهومه الأصيل المستمد من معين الكتاب الكريم والسنة المطهرة تتحد في حقيقته شعب التصديق والعمل الصالح، بعيدا عن إفراط الخوارج[1] وتفريط المرجئة [2] كحقيقة هدت إليها نصوص الوحي وفهوم السلف الصالح.

ولا يقصر العمل الصالح على ركائز العمل وواجباته[3] بل يتسع مفهومه

ليشمل المستحبات وهي الأعمال المندوبة، التي لا يلزم المكلف فعلها ليلحقها الإثم بتركها[٤]. وسعته لها تضفي أبعادا إيمانية عليها فإن الإيمان تتعاظم شعبه مع الإتيان بها ويزداد بها كما أنه ينقص بتركها. وهذا بدوره يقرع الألباب بمكانة العمل التطوعي وأثره على أحكام الإيمان في حقائق الوعد والوعيد.

فالعمل التطوعي من أعظم مكفرات الذنوب التي تدفع العقوبة وتمنع من إنفاذ الوعيد فلها أثر عظيم على التعرض للوعد باستحقاقه فضلا، وعلى الاحتراز من الوعيد كرما.

وإذا كان العمل التطوعي مفهومه الأعمال الصالحة المندوبة الغير ملزمة والتي لا ينبني عليها عوض في حق القائم بها فإن الإتيان به على الوجه المرضي بحيث تتحقق فيه شروط القبول من الإخلاص والمتابعة وتتجافى فيه بهارج العوض الدنيوي تتمحمور فيه هواتف المغفرة والرحمة ليرتفع بها المكلف إلى مدارج الخلص الأصفياء الذين نالوا فضل المعية ورفعة الحفظ وموالاة الرب بصدق الاتباع في المراضي، كما صح في الحديث عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه)[٥].

ومحتوى البحث كالتالي:

يبدأ بتمهيد: يعرف فيه مفهوم الإيمان والعمل التطوعي في الإسلام، وتكون المطالب على النحو التالي:

المطلب الأول: أثر العمل التطوعي على حقيقة الإيمان.

الفرع الأول: أثره على مفهوم الإيمان.

الفرع الثاني: أثره على شعبه وركائزه.

المطلب الثاني: أثر العمل التطوعي على زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الثالث: أثر العمل التطوعي على أحكام الإيمان.

الفرع الأول: أثره على الوعد.

الفرع الثاني: أثره على الوعيد.

**تمهيد في مفهوم الإيمان والعمل التطوعي**

عرف الإيمان في اللغة بأنه التصديق[٦]، أما حقيقة الإيمان الشرعية التي نطقت بها آيات الكتاب الكريم وسنة المصطفى ﷺ؛ فهي أنه قول وعمل. تصديق باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح.

ولها أجمع السلف، نقل هذا عن جمع من السلف عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: " سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة يعني في أصول الدين - وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار فقالوا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازا وعراقا ومصرا وشاما ويمنا فكان من مذاهبهم أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص "[٧].

فدلالة النصوص قطعية تجلي حقيقة الإيمان من أنه قول وعمل، أما كون قول وهو التصديق فهذا مع موافقته للغة فإنه مما ثبتت به النصوص، ومن أظهرها دلالة تعريف النبي ﷺ للإيمان به كما رواه أبو هريرة ﷺ حين سئل عنه في حديث جبريل فقال: ( أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره )[٨]

والتصديق بهذه الأركان حقيقة عظيمة من حقائق الإيمان إلا أن التصديق وحده لا يكفي في ثبوت الحكم بالإيمان بل لابد من العمل كحقيقة مركبة فيه لا يمكن فصله مع بقائه.

فقد" اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من أهل السنة على أن الأعمال من الإيمان لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال: ٢): فجعل الأعمال كلها إيماناً "[٩]، وبهذا فإن جميع الأعمال الصالحة بين واجبة ومندوبة تطوعا داخلة في مسمى الإيمان وحقيقته الشرعية، وسيأتي بيان ذلك.

أما عن حقيقة العمل في الإسلام فإنه يطلق على العمل الصالح الذي هو علم على الأعمال الواجبة والمستحبة الظاهرة والباطنة التي يراد بها وجه الله

تعالى[١٠]، فلابد أن تتوفر في هذا العمل حقائق الإرادة والقصد، فيكون موافقا لما شرعه النبي ﷺ مؤطرا بشرعه موافقا لما اخبر به ﷺ قرآنا محفوظا متواترا وسنة هادية ووحيا صادقا، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ (آل عمران:٣١).

فإن السبيل إلى محبة الله تعالى محصورة باتباع الهدي النبوي منطوقه ومفهومه والأثارة السنية، فقد فسر القاضي عياض المتابعة في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ بأنها: الاقتداء بهﷺ، واستعمال سنته ﷺ، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه[١١].

وهذه الأثارة النبوية التي أمرنا بالتمسك بها والتزامها، عصمها الله بنوره ووحيه من الهوى والخطأ والضلال، فالمصطفى ﷺ معصوم فيما يبلغه عن ربه تعالى، لإقامة هذا الدين قرآنا كريما وسنة مستنيرة، فإنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هوى إلا وحي يوحى. وما يدعو إليه هو عين الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده وأمرهم به، ولهذا كانت طاعته ﷺ طاعة لله تبارك وتعالى، واتباعه اتباعا لأمر الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: وهذه " العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة؛ فإن النبي هو المنبأ عن الله، والرسول هو الذي أرسله الله تعالى، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة؛ فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين ".[١٢]

وهنا تتبين حجية الطاعة في تحقيق العمل في الإسلام، قال تعالى: ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (التوبة: ١٠٥)، قالت عائشة، رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ، فقل: ﴿اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾[١٣].

ومهما طلب الوصول إلى صلاح العمل بغير السبيل المستقيم ضل السالك وغاب فإن الحق مرهون باتباع المصطفى ﷺ والهدي مقرون بالتأسي به، والعمل

التطوعي هو من آحاد العمل الصالح الذي هدى إليها حقائق الدين المعصوم

وإن كان للعمل التطوعي خصوصية، فإنه يستمد أصالته من القرآن العظيم والسنة المطهرة، ليحقق مكانته المميزة من بين الأعمال الصالحة، فإن له من الخصائص ما يضفي عليه من حقائق العبودية الشيء الكثير دون أن ينفرد عنها بعيدا بل هو يتبلور بينها ليضفي عليها أبعادا إيمانية ذات رسوخ في العمق العقدي للعمل الصالح كما سيتبين

والتطوع في اللغة في الأصل مأخوذ من الطاعة، فالتطوع تكلف الطاعة، ويستعمل في الشائع على معنى البذل بلا عوض. فالتطوع يرادف معنى التبرع، فمن تطوع بشيء فقد تبرع به. [١٤]

كذا على العمل المراد رغبة وطوعا دون إكراه ففي شأن الحج والعمرة قال تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ (البقرة: ١٥٨)[١٥]، وفسر التطوع هنا بأصله اللغوي، فيراد به من فعل طاعة مخلصا بها لله تعالى [١٦].

أما معناه الخاص فيراد به العمل المندوب إليه زيادة على الفريضة دون طلب للعوض عليه من أجور الدنيا. وهذا المعنى للعمل التطوعي ورد في الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ (التوبة: ٧٩)، فقد نص الذكر الحكيم على وصف المؤمنين بالمطوعين وهم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لا يريدون بها من متاع الدنيا القليل وإنما يبتغون بها ما عند الله تعالى من الأجر والمثوبة.

قال تعالى: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾، يقول الإمام الطبري: ﴿المطوعين﴾ أصله المتطوعين أدغمت التاء في الطاء ؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرعا من غير أن يجب عليهم[١٧].

فهناك روايات عديدة في التفاسير المأثورة دلت على أن هذه الآية نبت عن هؤلاء المطوعين من أقوال أهل النفاق الذين أظهروا سخريتهم بما قدموه من نفقات بانت قليلة ومحدودة. يقول الإمام ابن كثير: " وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا "[١٨].

وقد ورد استعماله في بالمعنى الخاص في السنة المطهرة في قول النبي ﷺ:عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ﷺ" أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ ؟، فَقَالَ: الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إِلا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ ؟، قَالَ: شَهْرَ رَمَضَانَ، إِلا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا، قَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ ؟، قَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرَائِعَ الْإِسْلامِ، قَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ "[١٩]

ويظهر من هذا الحديث الشريف معنى التطوع في الإسلام فإن النبي ﷺ استثناه من جنس العمل المشروع الذي ثبت فيه الأجر والمثوبة وفي تركه الزجر والعقوبة استثناء يرفع عن تاركه الوزر، فإن التطوع زائد على العمل المشروع الواجب لأن الواجب وإن تعلق به الأجر والفضل إلا أن تركه يوقع صاحبه في الوزر وهذا ما يرتفع عن جنس العمل التطوعي

فإن العمل التطوعي لا يلحق صاحبه الوزر كما يفهم من هذا الحديث النير. حيث التزم الأعرابي بفعل الفرائض وترك التطوعات وأثبت له النبي الفلاح مع ذلك، ومقصود النبي ﷺ الثناء عليه بالتزام ما أمر الله به وجوبا لا بتركه التطوعات كما هو معلوم، فإن التطوع في جنس العمل الصالح مرغب فيه كما هو معلوم من الأدلة الكثيرة وسيظهر هذا جليا بإذن الله في ثنايا البحث.

## المطلب الأول
## أثر العمل التطوعي على حقيقة الإيمان
### الفرع الأول
### أثر العمل التطوعي على مفهوم الإيمان

يكمن أثر العمل التطوعي على مفهوم الإيمان في كونه أحد الأصول التي يقوم بها الإيمان في دين الله تعالى فإبراز أثره على الإيمان من الجلاء بمكان لأن مجرد الكشف عن حقيقة الإيمان الدينية تظهر عظيم أثر الأعمال الصالحة التي تراد لله تعالى زيادة على ما كلف به العباد من الواجبات على حقيقة الإيمان.

وهذه الحقيقة الإيمانية الظاهرة للعمل التطوعي مؤثر وأثر؛ تتبلور مع التدرج في تقصي حقائق التعريف الشرعي للإيمان، بدء ببيان مفهوم الإيمان عند السلف الصالح لتتجلى مكانة العمل التطوعي منه، إن حقيقة الإيمان الشرعية التي أجلتها آيات الكتاب الكريم وسنة المصطفى ﷺ؛ أنه قول وعمل، تصديق باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح[٢٠].

ولهذا أجمع السلف، كما تقدم بيانه. فالتصديق بهذه الأركان حقيقة عظيمة من حقائق الإيمان إلا أن التصديق وحده لا يكفي في ثبوت الحكم بالإيمان بل لابد من العمل كحقيقة مركبة فيه لا يمكن فصله مع بقائه. فقد" اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من أهل السنة على أن الأعمال من الإيمان لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾: فجعل الأعمال كلها إيماناً ".[٢١]

وذلك أن الآية الكريمة أجلت حقيقة الإيمان بأسلوب الحصر، وهو من أساليب التأكيد المشرقة التي تنوه بشأن الأوصاف المثبتة حصرا لتحديد الماهية، فالمؤمنون إنما استحقوا شرف هذا الوصف لما حققوه من رفعة في العمل، تمثلت في الوجل والتوكل وهي أعمال باطنة مكانها القلب، والأعمال الباطنة قد تعلو درجة الأعمال الظاهرة وتفوقها، فلا يكون خفاؤها سببا للتهميش بل سببا للتنويه والذكر

لأن الشأن بالعلم بها حينئذ وهي خفية قد لا يدركه جليس العبد مع تمكنها من قلبه يكون مضافا للرب تعالى وهو سبحانه الذي يمحص العباد ويبتلي بواطنهم بأعظم مما يبتلي ظواهرهم حتى لا يراد سواه ولا يشرك معه غيره.

والأدلة من الأحاديث النبوية الصحيحة الصريحة التي تبين أن العمل الصالح من حقيقة الإيمان كثيرة، واذكر منها ما يبين تركيب مقومات الإيمان من الأعمال القلبية، وهذا كحديث المصطفى ﷺ حيث قال: ﴿لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.[٢٢]

والمحبة مع أنها أصل العمل ورأسه فهي عمل قلبي باطن ولها أثر ظاهر يلزمها ويدل عليها دلالة بينة كسائر أعمال القلوب لذلك فسرها الكثير من علماء السلف بحسن الاقتداء وصدق اتباع المصطفى ﷺ[٢٣]، ولما نفى المصطفى ﷺ الإيمان عن خال القلب من محبته ﷺ؛ دل على تحققه فيمن أتى بها على الوجه المرضي. وهذه هي حقيقة الإيمان تصديق وعمل.

وكما استوفت دلالة النصوص معنى الإيمان من أن حقيقته تتداخل في تكوينها ركائز التصديق والعمل، فقد دلت دلالة ظاهرة على أن العمل التطوعي من الإيمان أيضا داخل فيه يفسر جانبا عظيما من كينونته الشرعية.

فمن هذه النصوص المشرقة التي دلت على تفسير الإيمان بالعمل التطوعي، قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ( البقرة:١٧٧). فهذه الآية دلالتها مشرقة على تفسير الإيمان بالعمل الصالح بما يتضمنه من أنواع القرب التطوعية، فعن أبي ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان ؟، فتلا عليه: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾[٢٤]

فإن إيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب يسما إيتاؤه فريضة ونفلا كما لا يخفى، وكذلك الجهاد في سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، فعلق منال البر على الإنفاق من طيب المال دون اشتراط بلوغ النصاب وغيرها وهذا المعنى واسع في الآيات الكثيرة التي تحث على الصدقات الطيبة.

ومن هذه الأدلة ما جاء في السنة النيرة قوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون، أو بضع و ستون شعبة فأفضلها: قول لا إله إلا الله و أدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[٢٥]، فقد دل هذا الحديث على أن قول لا إله إلا الله والحياء وإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان التي تمثل بمجموعها حقيقته الكلية، على اختلاف في الرتبة، وكل هذه الأعمال تشمل الواجب والمستحب، ولا دليل على تخصيص الواجب منها فدل على شمولية الإيمان لكل شعبها وأنواعها.

ويتضح المعنى العام للتطوع أكثر والذي يراد به البذل بلا عوض؛ في إماطة الأذى، فإن إماطة الأذى عن الطريق من جملة الأعمال المستحبة التي تبذل زيادة على الفرائض والواجبات لنفع المسلمين ولا شك أن فعلها طلبا للمثوبة ودون رغبة في نفع دنيوي يزيد في ثواب صاحبها وتحقيقه لإيمانه كما سيتضح في أحكام الوعد لاحقا إن شاء الله تعالى.

وإفادة التطوعات لمعنى الإيمان الحق ظاهر في نصوص الدين تماما كما تدل الواجبات على الإيمان ومن ذلك ما رواه أَبِو هُرَيْرَةَ ﷺ؛ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:(مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[٢٦]، فإن المصطفى ﷺ نعت صيام الفريضة بالإيمان كما نعت قيام ليلة القدر وفي هذا ما يدل على شمولية مفهوم الإيمان للعمل الواجب والمندوب إليه.

وفي ضوء ما تقدم وزيادة مما لم يسع المقام ذكره الآن حكى إجماع السلف

الإمام ابن عبد البر على ما دلت عليه من تفسير الإيمان بالقول والعمل معا واجبا ونفلا فريضة وتطوعا، يقول: " أما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر فقالوا: الإيمان قول وعمل: قول باللسان والإقرار، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح مع الإخلاص بالنية الصادقة، قالوا: وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة و نافلة فهو من الإيمان، والإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي". [٢٧]

يقول الإمام الطبري: "الصواب فيه ــ أي الإيمان ــ قول من قال:هو قول وعمل يزيد وينقص، وبه جاء الخبر عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وعليه مضى أهل الدين والفضل".[٢٨]

إيماننا قول وقصد وعمل  تزيده التقوى وينقص بالزلل[٢٩]

وبهذا تعلم حقيقة الإيمان الذي ورد مطلقاً في القرآن الكريم " فقد بين فيه أنه لا يكون الرجل مؤمناً إلا بالعمل مع التصديق "[٣٠].

أما عن مكانة العمل التطوعي من الإيمان مع الاتفاق على دخوله في مفهوم الإيمان: نجد أن التصديق أصل الإيمان، وهذا أحد ما توجه به تفسير الحديث النبوي عن المصطفى ﷺ الذي قال فيه لجبريل عليه السلام معرفا الإيمان: (أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره).

وإذا كان التصديق أصل الإيمان فهذا لا يخل بمكانة العمل في الإيمان من حيث كونه داخل في ماهيته لا تحقيق له إلا به، فإن العمل ركن ركين في الإيمان يدل وجوده على وجود التصديق وانتفاؤه يدل على انتفائه، فيصح أن يعبر عن العمل بأنه لازم التصديق لأن أصل الإيمان في القلب، والعمل الصالح لازم له، إذا وجد دل على ما في القلب وإذا انتفى دل على انتفائه.[٣١]

والقاعدة: الإرادة الجازمة مع القدرة التامة توجب العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (النور:٥١)

فمن المحال أن يمتنع المكلف عن الامتثال مع توفر المقتضي من الإيمان والتصديق، وقد أشار إلى هذه الحقيقة الإمام ابن القيم رحمه الله، حيث قال:"مبدأ كل علم نظري، وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة "[٣٢].

دل على هذا الأصل حديث المصطفى ﷺ: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، و إذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٣٣]. يقول الإمام ابن رجب:" فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات واتقاءه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه: فإن كان قلبه سليماً ليس فيه إلا محبة الله تعالى، ومحبة ما يحبه. صلحت حركات الجوارح كلها. وإن كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتباع هواه. فسدت حركات الجوارح كلها".[٣٤]

فإذا تبينت مكانة العمل الصالح مطلقا من الإيمان ظهر جليا أن الإيمان المطلق يدخل فيه كافة الأعمال الصالحة، وهو ما يسمى الإيمان الكامل، فالتطوعات إذا تحقق هذا المفهوم الشامل الكامل لحقيقة الإيمان. أما الأعمال الواجبة المفروضة من الأصول والفروع إنما تدخل في الإيمان الواجب. ولهذا التحقيق في مكانة العمل التطوعي من الإيمان أدلة منها: قوله تعالى:﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (البقرة: ١٤٣)، فعبر الباري تعالى عن الصلاة بالإيمان وهي عمل ظاهر وفي هذا دليل جلي على أن العمل الصالح ركين في الإيمان، وليس فيه ما يقصر المفروض منها على وصف الإيمان بل مسمى الإيمان يشمل المفروض منها والمندوب إليه.

وتتعدد أساليب الخطاب النبوي ﷺ التي تفيد تحقيق هذا المعنى، فالمصطفى ﷺحين يعلق فعل بعض التطوعات على وصف الإيمان من المكلف فإن دلالة التطوعات على حقيقة الإيمان الكامل تكون بينة، ومن ذلك قول النَّبِيُّ ﷺ: ( مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ قَالَ وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا

كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)[٣٥]. فإكرام الضيف والكف عن فضول الكلام لا شك أنها من عموم المندوبات التي مدارها في الإحسان لعموم المسلمين على كف الأذى وبذل الخير دون طلب للعوض الدنيوي، ونجد أن النبي ﷺ يعلق وصف الإيمان الكامل على التزامها والتخلق بها.

وأهل العلم المحققين أكدوا على أن هذا الإيمان يراد به الإيمان الكامل يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله:" المراد بقوله يؤمن: الإيمان الكامل وخصه بالله واليوم الآخر إشارة إلى المبدأ والمعاد أي من آمن بالله الذي خلقه وآمن بأنه سيجازيه بعمله فليفعل الخصال المذكورات".[٣٦]

وهذا حرز من الوقوع في ضلالات التطرف والغلو، إذ الدين مبناه الاعتدال دون إفراط أو تفريط، فاعتقاد أن العمل التطوعي من الإيمان الكامل يحفظ له مكانته باعتدال وتوسط، فيبقي له أثره العميق في تحقيق حقيقة الإيمان وما تثبته من أحكام وأوصاف، دون غلو يؤثر على مكانة الأعمال الواجبة من الإيمان، وما تؤديه من مهمة بالغة في وصف من اكتفى بها على الوجه المرضي بالإيمان المنجي.

## الفرع الثاني
## أثر العمل التطوعي على شعب الإيمان وركائزه

هذا المبحث يعزز ما سبق من بيان أثر العمل التطوعي في تحقيق الإيمان وذلك ببيان أن الإيمان شعب، وأن العمل التطوعي يمثل عددا ظاهرا من شعب الإيمان، والمراد بالشعب الأجزاء التي تعرف مفردة بدلالتها على الكل؛ ويعرف الكل بمجموعها، والعلم بشعب الإيمان يتبع العلم بحقيقته فإن الإيمان قول وعمل، والقول فيه أركان وواجبات ومستحبات متعددة وكذا العمل منه الواجب والمستحب.

ويتبين هنا أثر العمل التطوعي على تحقيق شعب الإيمان من جوانب عدة:

الأولى: تنوع شعب الإيمان بأن منها التصديق التطوعي ومنها العمل التطوعي.

الثانية: تغاير هذه الشعب، فمنها شعب الباطن التطوعي، ومنها شعب الظاهر

التطوعي.

الثالثة: وجود التلازم بين هذه الشعب عند القوة، فالأصل منها يلزم عنه تحقيق الواجبات والمستحبات.

وحقيقة تناول شعب الإيمان للعمل التطوعي معلومة من نصوص الكتاب والسنة، ودلالتها متنوعة، فمنها ما دل عليها صراحة وهو حديث المصطفى ﷺ الذي قال فيه: (الإيمان بضع وسبعون، أو بضع و ستون شعبة فأفضلها: قول لا إله إلا الله و أدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[٣٧]، فأظهر هذا الحديث أصلا عظيما في بيان الركائز التي يقوم عليها معتقد التشعب في الإيمان. حيث اشتمل على بيان المقومات التي تفسر حقيقة التشعب وتناوله للعمل التطوعي على أنه من آحاد الإيمان التشعبية، حيث أبرز تنوع الشعب من حيث اشتمالها على الاعتقاد والعمل خصوصا العمل التطوعي المفسر بقوله (إماطة الأذى عن الطريق)، فلم يكن هذا العمل في العهد النبوي مما يتعهد بمكافأة دنيوية فأثبت فضله بتحقيقه للإيمان من كونه يحقق شعبة من شعبه.

كما أبرز هذا الحديث النبوي الشريف تناول الإيمان لشعب العمل التطوعي، من حيث إبراز مكانة العمل التطوعي في الإيمان ببيان أنه من شعبه المفسرة لحقيقته؛ يقول الإمام ابن منده: " فجعل الإيمان شعبا: بعضها باللسان، والشفتين، فمنها ما يكون بالعمل ومنها ما يكون بالقلب، وبعضها بالقلب، وبعضها بسائر الجوارح "[٣٨]، وكان هذا الحديث أيضا عمدة في أثر العمل التطوعي على تشعب الإيمان، فإن العمل لازم لشعب الإيمان الباطنة من حيث ارتباط الظاهر بالباطن، فالإيمان كل تجتمع وتتلازم شعبه تؤدى فيه الحقوق بدء بحق الله تعالى من التوحيد الذي مثلته الشهادة هنا.

فالنطق بالشهادة عمل ظاهر يتضمن شعبا باطنة من كمال التصديق والإخلاص، تعلقت به شعب الإيمان التالية التي أوردها الحديث ما بطن منها وما ظهر، فالحياء شعبة باطنة تلزم عن كمال التوحيد، وإماطة الأذى عن الطريق شعبة

ظاهرة مثلت لازم المعتقد الصحيح بالعمل الصالح.

**وفيما يلي بيان أكثر تفصيلا لأدلة هذه الركائز التي تقوم عليها حقيقة هذه الشعب التطوعية التي تمثل جزء مهما من أجزاء الإيمان وشعبه:**

وتنوع شعب الإيمان التطوعية يتفرع عن فهم الأصول التي يقوم عليها الإيمان' فالإيمان له أصلان يتفرع عنهما سائر شعبه فالإيمان القولي شعبه قولية؛ والإيمان العملي شعبه الأعمال، وإن كانت من جملة التطوعات التي تحقق الإيمان كمالا، فإن عامة شعب الإيمان تندرج في هاتين الركيزتين اعتقادا وقولا وعملا.

ودليل هذه الحقائق الإيمانية الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة؛ التي تعدد أوصاف الإيمان وتفسره بالأعمال التطوعية الظاهرة والباطنة المتنوعة، وهي في دلالتها على حقيقة التشعب تتنوع، فمن هذه الأحاديث ما يبين هذه الحقيقة في الإيمان القولي، ومنها ما يبينها في الإيمان العملي؛ ومنها ما يجمع في دلالتها حقيقة التشعب بمجموعه كما في الحديث السابق.

**أولا: شعب الإيمان القولية:**

ويظهر هذا المعنى جليا حين سأل جبريل عليه السلام المصطفى ﷺ عن الإيمان قال له: ( أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره).[٣٩]، فهذه أصول شعب الإيمان الاعتقادية القولية. ومثلها في قوله تعالى:﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ الآية .

فهنا حقق وصف الإيمان بإتيان شعبه التصديقية التي يلزم عنها تحقيق عامة شعبه من العمل. ودلالة هذه النصوص ظاهرة على الأصول من شعب الإيمان التصديقية، أما دلالتها على الشعب التطوعية من الإيمان التصديقي، فلا شك أنها تندرج فيها كما لا يخفى.

فمثلا التصديق التفصيلي بكافة أسماء الله تعالى الحسنى الواردة في القرآن الكريم والسنة هو من التصديق التطوعي الذي ثبتت فيه الإثابة الخاصة دون العقوبة

لتاركه، فالمصطفى ﷺ، يقول: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة )[٤٠]، يقول الإمام النووي: " مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها "[٤١].

ولا شك أن الإيمان بأسماء الله تعالى من الإيمان بالله سبحانه والإيمان به تعالى هو الشعبة الأولى العظمى من الشعب التصديقية الإيمانية وكل ما يندرج فيها من جملة التصديقات التفصيلية فهو دائر بين أن يكون واجبا لا يسع المكلف جهله وبين أن يكون مستحبا، فإن القول في الصفات كالقول في الذات.

**ثانيا: شعب الإيمان العملية:**

وكما بين النبي ﷺ حقيقة التشعب في الإيمان القولي، فقد بينها في الإيمان العملي حين فسر الإيمان بتطبيقاته التشريعية الظاهرة، وذلك لما سأل وفد عبد القيس عن الإيمان فقال: (هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَتُؤْتُوا مِنْ الْمَغَانِمِ الْخُمُسَ).[٤٢]

فشهادة التوحيد عمل وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأداء الخمس من المغنم، فدل هذا الحديث كسابقه على الأصول من شعب الإيمان ولكن العملي منها دون القولي. وحين يثبت المصطفى ﷺ الحقيقة الإيمانية للأعمال التطوعية بإضافتها إلى جنسها من الفروض فلا شك أن هذا يبرز أهميتها وثبوت مكانتها من الإيمان، وذلك في حديث الأعرابي الذي كان المصطفى ﷺ كلما أخبره عن فرض من فروض الإسلام التي سبق تفسير الإيمان بها في الحديث الآنف الذكر يضيف لها التطوعات التي من جنسها على صورة الاستثناء، مما يؤكد حقيقة انتماءها إليها، فيقول كلما أجاب بفريضة من فرائض الإسلام (إِلا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا).

ومما يبين شعب الإيمان في حقيقته التطبيقية الباطنة بين الواجب والتطوع، قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾. فالوجل والتوكل من أعمال القلوب، كما هو

معلوم، وهي من الأعمال الباطنة الواجبة، إلا أن كمال التوكل وكمال الوجل عند تلاوة الآيات من كمال الإيمان، فهي من الأعمال التطوعية الباطنة التي تحقق كمال الإيمان.

**تلازم شعب الإيمان:**

وبهذه القاعدة الإيمانية التي تحكم حقيقة التشعب، تظهر أهمية التطوعات التي تشمل جزء مهما من أجزاء الإيمان وشعبه، فإن الشعب التطوعية هي نتيجة حتمية لقوة الشعب الواجبة الثابتة المؤداة من قبل العبد على وجهها المرضي عند الله تعالى، فإن ضرورة التلازم في شعب الإيمان حقيقة معلومة من علاقة الظاهر بالباطن وان ما بطن من الاعتقاد لا بد أن يظهر ملزومه على السلوك، فإن الإرادة الجازمة مع القدرة التامة تلزم العمل. فلابد أن تترابط هذا الشعب وتتلازم ليكون الظاهر من هذه الشعب لازما لما بطن منها.

وهذا مفهوم ارتباط العمل بالتصديق وتحقق علاقة الظاهر بالباطن إلا أنه يجدر هنا التأكيد على هذه الحقيقة إذ تلازم شعب الإيمان تضطرد حقيقته في الشعب الباطنة بعضها ببعض، كما فيما يستند إليها من شعب ظاهرة. فالمؤمن إذا انعقدت في قلبه شعبة التصديق بالمصطفى ﷺ فإنها تدعو إلى انعقاد شعب عظيمة تصديقية كالإيمان بأخبار الغيب التي أتى بها على جهة الإجمال ثم التفصيل، وهكذا، مع كون هذا التصديق يستلزم شعبا عظيمة أخرى من العمل كصدق المحبة والطاعة والتزام السنة.

وهذا مصداقه في قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٦٢). فقد دلت هذه الآية الكريمة على معنى عظيم من معاني تلازم شعب الإيمان، حيث نوهت بلازم شعب التصديق من شعب الانقياد في حق الإيمان بالرسول ﷺ، يقول الإمام ابن جرير:" ما المؤمنون

حقّ الإيمان، إلا الذين صدقوا الله ورسوله﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ ﴾ يقول: وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ ﴿ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ يقول: على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت، أو صلاة اجتمع لها، أو تشاور في أمر نزل﴿ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ يقول: لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر، حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ".[٤٣]

فهؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم لتصديقهم وصدقهم بإيمانهم بربهم ونبيهم حققوا معنى الطاعة وثبتوا في مقام الاتباع حتى في مجال التطوعات فإن الأمر الجامع الذي يكون عليه الرسول والصحابة الكرام يشمل الواجب من الدين والمندوب منه الذي كان من هديه ﷺ الاجتماع له.

## المطلب الثاني

## أثر العمل التطوعي على زيادة الإيمان ونقصانه

الحق عند أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، والزيادة تحصل بالعمل الصالح على تعدد مراتبه بين واجب ومستحب وأصل وتطوع، وإذا ثبتت الزيادة بالأعمال الصالحات فإن النقص ثابت أيضا بتركها. وتحقيق زيادة الإيمان بالعمل التطوعي تكون ببيان ماهية زيادة الإيمان فإن الزيادة تلحق ذات التصديق كما تلحق جانب العمل، وهذا ظاهر على أصول أهل السنة والجماعة:

**فأثر العمل التطوعي على زيادة التصديق تظهر من جهتين:**

١- زيادة في آحاد المصدق به من أنواع القربات والطاعات التطوعية التي ثبتت بنصوص الكتاب والسنة، فتصير زيادة في التصديق من جهة الكم.

٢- وزيادة تلحق ذات التصديق كيفا، وتعني تأكده ووثوقه وقوته، فإن هذا مما لا يستوي فيه المؤمنون، حتى مع استوائهم في عدم الشك أو الظن المناقض لأصل التصديق بهذه القربات التطوعية التي ثبتت بدلائل الكتاب والسنة، ومع هذا فإن تصور حد أدنى يتحقق الإجماع على عدم تعديه على من وصف بالإيمان من جهة التصديق يمتنع لما تقدم في حقيقة التفاوت.

وقد يكمن تفاوت الناس في هذه الإيمانية التصديقية بحسب تأويلهم لها

عملا، فإن العمل يؤثر على التصديق كما هو معلوم. ولهذه القوة لوازم وثمار، قد يفسر زيادة التصديق بها كالنور والرقة فإنها من لوازم قوة التصديق ووثوقه، فلا تكفي أن تفسر زيادة التصديق بها.

**أما أثر العمل التطوعي على زيادة الجانب العمل الإيماني فهي أكثر ظهورا، فإن الزيادة تلحقه كما وكيفا.**

فإن الإيمان العملي يزداد بزيادة عدد أفراد العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن متأولا للحقائق الإيمان التصديقية. والعمل التطوعي يمثل جمعا غفيرا من أفراد العمل الإيماني. وقد يزداد الإيمان بالعمل التطوعي بزيادة في إتقان العمل وإحسانه وهذا ظاهر للمتأمل.

ولا انفكاك بين التصديق والعمل في تحقيق الزيادة الإيمانية فإن الإيمان حقيقة مجتمعة وهيئة متكاملة تتلازم شعبها يقوي بعضها بعضا ويدعو بعضها إلى بعض، فقد يزداد التصديق فتظهر زيادته في آحاد العمل وكذا الزيادة التي تلحق العمل قد تؤثر أيضا فتزيد في التصديق قوة وثباتا.

**وقد استدل لزيادة الإيمان بالعمل الصالح بالعديد من الأدلة الشرعية:**

فمنها: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ (الأنفال:٢)، فالله تبارك وتعالى امتدح المؤمنين بما يحصل لهم من زيادة الإيمان من عمل صالح عظيم، وهو سماعهم لآيات الكتاب الكريم، وتحقيق وجه زيادة الإيمان من سماع آي الذكر الحكيم يتأتى من جهتين:

أولاهما: زيادة التصديق من حيث زيادة المصدق به فيكون زيادة في كم التصديق عددا لأن الآيات كانت تتنزل على النبي وفي سماعها ما يزيد في إيمان المؤمنين لما يحصل لهم من زيادة في تصديق ما جاء به من الأخبار والأحكام.

ثانيهما: زيادة في لازم التصديق من العمل الصالح، فالآيات الكريمة تتنزل بالأحكام التي تلزم المكلف باتباعها والانقياد لها ظاهرا وباطنا. كالأمر بالصدقات وأنواع القربات من الصلاة والحج وغيرها. وتتنزل بالأخبار أيضا؛ التي منها ما يبعث

على العمل الباطن كخشية الله تعالى وتعظيمه ورجائه والخوف منه بثبته من حقائق الإيمان المتعددة كالإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته واليوم الآخر. وبهذا يكون سماعها سبيل لزيادة الإيمان.

وبه ظهرت دلالة الآية الكريمة على زيادة الإيمان بالعمل التطوعي وذلك من حيث اشتمال الآيات الكريمة على أنواع القربات التي يقوم بها العبد تطوعا، كالإنفاق والجهاد والصلاة والحج والعمرة وغيرها مما هو زيادة على جنسها الواجب وقد يكون ذلك على سبيل التصريح، كقوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة:١٧٧). فإن هذه الآية تلاوتها تزيد في إيمان سامعها من المؤمنين من جهة ما يقع منه تأويلا لها من أنواع القربات المذكورة فيها بين واجب مفروض وقربة تراد تطوعا لله تعالى.

وإذا ثبت أثر العمل التطوعي على الإيمان من جهة تأويل الآيات تطبيقا وطاعة والتزاما، فإن أثره ظاهر على جانب التصديق في الإيمان، إذ مجرد التصديق بالآيات الكريمة بما فيها من حث على الطاعات يحقق الإيمان ويزيد فيه، فإن الزيادة تلحق الإيمان من جهتي التصديق والعمل كما تبين.

وهذا المعنى هو مفاد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ ( التوبة:١٢٤). ومنها: قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (آل عمران:١٧٣). ومحل الزيادة هنا بزيادة العمل الباطن من التصديق بأمر الرسول والتوكل التام على الله تعالى، لما أمر النبي المجتبى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم بالذهاب معه لمواجهة المشركين بعد أن أنهكتهم

الحرب وأجهدهم ما لاقوه من قتال المشركين، فكان ما أورثه اليقين بوعد الله والتوكل عليه زيادة في إيمانهم ظهر في الانقياد التام لأمر الله ورسوله ﷺ، فكان لهم من ذلك نصيب من رحمة الله حيث كف الناس عنهم كما هو معلوم.

**أثر العمل التطوعي على نقص الإيمان:**

هنا يظهر اثر العمل التطوعي على نقص الإيمان، وذلك بالتفريط في جانبه فإن المكلف إذا فرط في القيام بأنواع التطوعات من الصدقات والطاعات المتنوعة بين متعدية ولازمة فإن هذا التفريط يؤثر على هيئة الإيمان المجتمعة من حقائق الإيمان التصديقية والعملية، وهو ما يسمى بالإيمان الكامل، وهذا المعنى مفاد قول المصطفى ﷺ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ( لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).[٤٤]

يقول ابن بطال:" معناه: لا يؤمن أحدكم الإيمان التام، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وقال أبو الزناد: ظاهره التساوي وحقيقته التفضيل، لأن الإنسان يحب أن يكون أفضل الناس، فإذا أحب لأخيه مثله، فقد دخل هو في جملة المفضولين، ألا ترى أن الإنسان يجب أن ينتصف من حقه ومظلمته، فإذا كمل إيمانه وكانت لأخيه عنده مظلمة أو حق، بادر إلى إنصافه من نفسه، وآثر الحق، وإن كان عليه فيه بعض المشقة)[٤٥].

ولا بد أن ندرك أولا أن النقص في حق الإيمان لم يرد صريحا في القرآن الكريم وإنما ورد في السنة المطهرة فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ( ما رأيت من ناقصات عقل ولا دين أغلب لذي لب منكن. قالت: وما نقصان العقل و الدين ؟، قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين شهادة رجل، و أما نقصان الدين: فإن إحداكن تفطر رمضان، وتقيم أياماً لا تصلي ).[٤٦]

فالإيمان من مراتب الدين فإذا ثبت النقص في الدين فهو ثابت في الإيمان لأن الإيمان مرتبة من مراتب الدين كما هو معلوم من حديث جبريل عليه السلام، ونقص الإيمان هنا مفسر كما هو ظاهر الحديث بزوال العمل الواجب عن المرأة

حال حيضها، فمع كونها مكلفة بتركه إلا أن له أثرا على الإيمان فيلحقه النقص بنقصه. وقد يكون له شبه بحال المفرط في المستحبات والتطوعات دون الفروض والواجبات فإن من يفعلها يكون أقوى إيمانا ممن يفرط فيها كما هو معلوم ألا أن الإثم لا يلحقه في ذلك.

يقول الإمام النووي موضحا هذه الحقيقة:"وَأَمَّا وَصْفُهُ ﷺ النِّسَاءَ بِنُقْصَانِ الدِّين لِتَرْكِهِنَّ الصَّلاة وَالصَّوْم فِي زَمَن الْحَيْض فَقَدْ يُسْتَشْكَل مَعْنَاهُ وَلَيْسَ بِمُشْكِلٍ، بَلْ هُوَ ظَاهِرٌ فَإِنَّ الدِّين وَالْإِيمَان وَالْإِسْلام مُشْتَرِكَة فِي مَعْنًى وَاحِدٍ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي مَوَاضِع، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَيْضًا فِي مَوَاضِع أَنَّ الطَّاعَات تُسَمَّى إِيمَانًا وَدِينًا، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا عَلِمْنَا أَنَّ مَنْ كَثُرَتْ عِبَادَته زَادَ إِيمَانه وَدِينه، وَمَنْ نَقَصَتْ عِبَادَته نَقَصَ دِينه. ثُمَّ نَقْصُ الدِّين قَدْ يَكُون عَلَى وَجْه يَأْثَم بِهِ كَمَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ أَوْ الصَّوْم أَوْ غَيْرهمَا مِنْ الْعِبَادَات الْوَاجِبَة عَلَيْهِ بِلا عُذْرٍ، وَقَدْ يَكُون عَلَى وَجْه لا إِثْم فِيهِ كَمَنْ تَرَكَ الْجُمُعَة أَوْ الْغَزْو أَوْ غَيْر ذَلِكَ مِمَّا لا يَجِبُ عَلَيْهِ بِلا عُذْرٍ، وَقَدْ يَكُون عَلَى وَجْهٍ هُوَ مُكَلَّف بِهِ كَتَرْكِ الْحَائِضِ الصَّلاةَ وَالصَّوْم ". [٤٧]

وتتأكد هذه الحقيقة الإيمانية بمعرفة أحوال الكمل الذي بلغوا أعلى منازل الإيمان من الأنبياء والصديقين ومن رفع الله درجته في الإيمان من العلماء العاملين فإن هؤلاء إنما كمل إيمانهم لما قاموا بكافة الواجبات وبذلوا جهدهم في نيل أعلى مصاف القرب والتطوعات.

## المطلب الثالث

## أثر العمل التطوعي على أحكام الإيمان

### الفرع الأول

### أثر العمل التطوعي على أحكام الوعد

**أولا: استحقاق درجة التقوى الكاملة:**

قال تعالى معرفا أهل التقوى الذين نالوا شرف وصفها: ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون

والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾(البقرة١-٤).

وقال تعالى: ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

هذه الآيات الكريمة ظاهرة في اشتمالها على عدد من الاعمال التطوعية كما تقدم بيان ذلك والمراد هنا تعليق وصف المؤمنين بالتقوى على التحلي بها. وقد تبين من خلالها أن تحقيق التقوى لا يكون إلا بالترك التام مع الفعل التام، فيكون المتقي أهلا للتقوى مع فعل الطاعات المفروضة والمستحبة المندوب إليها تطوعا، مع ترك المحرمات والمنهيات.

فالله تعالى أمر بتقواه، بأن يفعل العبد ما وجب عليه فإذا وقع في شيء من التقصير والتفريط فإن فعل الصالحات المندوبة يجبر ويصلح عمله ويثبته على تحقيق مقام التقوى، ولهذا قال النبي ﷺ: (اتق النار ولو بشق تمرة)[٤٨].

ولأن التقوى أمرها عظيم حيث يترتب عليه القبول من الله تعالى فإن أصلها هي عبادة الله تعالى والإخلاص له بان يحذر العبد من الشرك فإذ زاد على ذلك من الأفعال الصالحة المندوبة استحق كمالها وشرف التسمية بها كما دلت على ذلك الآيات السابقة، يقول الإمام ابن رجب في ظل الآيات السابقة: ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات وهي أعلى درجات التقوى، قال الله تعالى: ﴿الم ذلك الكتب لا ريب فيه.الآية﴾.[٤٩]

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله، وعن أبي الدرداء قال: تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما يكون حجابا بينه وبين الحرام فإن

الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾، فلا تحقرن شيئا من الخير أن تفعله ولا شيئا من الشر أن تتقيه.[٥٠]

**ثانيا: نيل منزلة الولاية:**

وبفعل الصالحات المندوب إليها والتي يقوم بها المكلف تطوعا تنال ولاية الله تعالى التامة التي تستوجب تمام رضاه عن العبد فينتفي عنه الخوف و الحزن في الداريين، وهذه إنما تتحقق مع الإيمان الكامل الذي يلزم معه العبد الاستقامة على مراضي الله تعالى، قال عز وجل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ (يونس:٦٢).

فالولاية عند أهل السنة والجماعة لها جانبان: أحدهما من جهة العبد، قياما بأمر الله تعالى، طاعة وامتثالا لما جاء به، واجتنابا لما نهى عنه، ثم يكون التدرج في مراقي التقرب إلى الله تعالى ظاهرا وباطنا. والجانب الآخر هو الذي يكون من جهة الرب تبارك وتعالى، جزاء لما كان من العبد، فيتولاه المولى بالقرب والرحمة والمحبة. " إذ الولي لا يكون وليا لله إلا بمتابعة الرسول باطناً وظاهراً فعلى قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية "[٥١].

وأثر القرب والنوافل وأعمال التطوعات في تحقيق الولاية ظاهر في الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ( إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).[٥٢]

فأبرز الحديث مكانة العبادات التي شرعها الله تعالى لعباده في صرح الإسلام على تنوعها بين فرائض ونوافل، فأثبت للفرائض منزلة القواعد من البناء

وللنوافل تمام الصرح وكماله. فالمؤمن لما يكمل فرائض الله ويتمها بالعمل المحبوب المرغب فيه نفلا يزداد قربا إلى الله تعالى ومنالا لمحبته تعالى، هذه المحبة التي إذا نالها العبد جوزي بتمام الرعاية والكلاءة والرحمة والثبات على ما يرضي الله تعالى.

يقول الحافظ شارحا ثمرات الفروض والنوافل في تحقيق الولاية: " الذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفا من العقوبة ومؤدى النفل لا يفعله إلا إيثارا للخدمة فيجازى بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته قوله وما زال في رواية الكشميهني وما يزال بصيغة المضارعة قوله يتقرب إلي التقرب طلب القرب قال أبو القاسم القشيري قرب العبد من ربه يقع أولا بإيمانه ثم بإحسانه وقرب الرب من عبده ما يخصه به في الدنيا من عرفانه وفي الآخرة من رضوانه وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه ". [٥٣]

**ثالثاً: رحمة الله تعالى بالأجر والمثوبة ودخول الجنة:**

العمل الصالح سبب لتحقق الأجر وحصول الثواب والوعد بدخول الجنة، فإن الجنة دار كرامة الله ورحمته لا ينالها احد بعمله استحقاقا وإنما فضلا من الله ورحمة وقد ثبت هذا الفضل العظيم والمنة مترتبة على العمل المفروض وكذا على العمل التطوعي المندوب، ولهذا أمثلة كثيرة جدا من الكتاب والسنة، فالله تعالى وعد المنفقين الذين يبتغون وجه الله بالثواب والأجر العظيم. بل إنها تثبت الأجر للمسلم حتى بعد موته مما يدل على فضلها في هذا الباب. قال النبي ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية. وعلم ينتفع به. وولد صالح يدعو له).[٥٤]

وآيات القرآن الكريم تبدي وتعيد في الإثابة بالعمل الصالح والاستزادة به، قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]

من المعلوم أن الإنفاق والجهاد من شرائع الإسلام العظيمة التي يندرج فيها أنواع الفروض والواجبات والمستحبات، كما هو معلوم وقد عمم الفضل فيها، مما يدل على أن المثوبة تعم كافة من عمل بها على جهة الإخلاص وحسن المتابعة. بل في الآية ما يدل على أن هذه المرتبة والمنزلة إنما ينالها الكمل الذين لم يكتفوا بالفروض والواجبات بل جاوزوها بالقرب والمستحبات وهذا ما يضفيه معنى الشراء المطلق الذي أضافه الرب تعالى لنفسه زيادة في تخصيص الثمن.

وقد صرحت بهذا الأثر العظيم للأعمال التطوعية السنة المطهرة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَنَا قَالَ فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَنَا قَالَ فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَنَا قَالَ فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلا دَخَلَ الْجَنَّةَ)[٥٥].

وعن أبي كثير السحيمي عن أبيه قال: سألت أبا ذر ﷺ قلت دلني على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة قال سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: " يؤمن بالله، قال: فقلت: يا رسول الله إن مع الإيمان عملا ؟، قال: يرضخ مما رزقه الله، قلت: وإن كان معدما لا شيء له ؟، قال: يقول معروفا بلسانه، قال قلت: وإن كان عييا لا يبلغ عنه لسانه، قال: فيعين مغلوبا، قلت: فإن كان ضعيفا لا قدرة له ؟، قال: فليصنع لأخرق، قلت: وإن كان أخرق ؟، فالتفت إلي وقال: ما تريد أن تدع في صاحبك شيئا من الخير، فليدع الناس من أذاه، فقلت: يا رسول الله إن هذه كلمة تيسير، فقال ﷺ: والذي نفسي بيده ما من عبد يعمل بخصلة منها يريد بها ما عند الله إلا أخذت بيده يوم القيامة حتى تدخله الجنة "[٥٦]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ).[٥٧]، وعن عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:( مَنْ بَنَى مَسْجِدًا قَالَ بُكَيْرٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ ).[٥٨]

فهذه جملة من الأعمال التطوعية التي وعد عليها بالأجر المثوبة والجزاء العظيم بدخول الجنة، بين جهاد وإنفاق حج وزيارة مريض وتشييع جنازة ومعونة للعاجزين والضعفاء، والله تبارك وتعالى يجزل لمن فعل هذه الأعمال الأجر والثواب مع تحقيق التوحيد والإتيان بالفرائض على التحقيق.

## الفرع الثاني
## أثره على أحكام الوعيد

الأعمال الصالحة بين مفروضة ومستحبة تطوعية من موانع الوعيد في حق الموحد المؤمن فإنها تكفر الذنوب وتثبت الحسنات فتقي بإذن الله من العذاب وقد دلت النصوص على هذه المعاني بدلالات واضحة مشرقة، فمنها ما دل على عموم تكفير الخطايا بها، ومنها ما دل على أنها تقي من عذاب الله ودخول النار ومنها ما يدل على أنها تشفع في الخروج منها أيضا.

**أولا: تكفير الخطايا والذنوب:**

من أعظم آثار الأعمال المندوبة التطوعية ما تحرزه في حق القائم بها من تكفير للخطايا والسيئات[٥٩]، ولهذا الفضل العظيم حضت عليه نصوص الهدى والوحي، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذالِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ)[٦٠].

وعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَاتَ رَجُلٌ فَقِيلَ لَهُ قَالَ كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ فَأَتَجَوَّزُ عَنْ الْمُوسِرِ وَأُخَفِّفُ عَنْ الْمُعْسِرِ فَغُفِرَ لَهُ)[٦١]. وروي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ)[٦٢].

فهذه النصوص أثبتت أثر العمل التطوعي على الوعيد من جهة ما اختصت به من أثر في دفع الوزر وتكفير الخطايا، فسقي البغي للكلب مع استقباح جرمها إلا

أن ذلك العمل أثر تأثيرا بالغا في تكفير ما كانت تقوم به، وكذلك إزالة الشوك عن طريق المسلمين، وأيضا إحسان إلى الناس في البيع والتجاوز عن المعسرين.

والأدلة في هذا المعنى كثيرة وعظيمة وهي أعظم من أن أحصيها هنا وأظهر دلالاتها ولكن لعل ما ذكرته يبرز أثر العمل التطوعي على الذنوب والخطايا من كونه أحد الأسباب الماحية له بفضل الله تعالى ومشيئته.

**ثانيا: المنع من إنفاذ الوعيد:**

العمل التطوعي يدفع العقوبة ويمنع من العذاب بإذن الله تعالى في الدنيا والآخرة، فقد ثبت له هذا الفضل من وجهين:

الأول: أن العمل التطوعي إذا تحققت فيه شرائط القبول فإنه يثبت الحسنات الماحيات للمكلف والحسنة تثقل الميزان وتدافع الذنوب وتحول مع قبولها عند الله تعالى حصول العقاب. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا ومن حسن أجره مع حسن عمله نجا من عذاب الله وعقوبته.

الوجه الثاني؛ فقد ثبت الأجر بحيلولة العمل التطوعي دون إلحاق العذاب بصاحبه في عدد من الأعمال التطوعية المنصوص عليها، ومن ذلك الإحسان إلى البنات وتربيتهن، وكذلك التطوع بصلاة أربع ركعات قبل الصلاة وبعدها.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ)[٦٣]، عن أُمُّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا حَرُمَ عَلَى النَّارِ)[٦٤].

وكذلك الصدقة والمعاملة الحسنة للخليقة، فعن عدي بن حاتم الطائي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ( ثُمَّ لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلا تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ أَلَمْ أُوتِكَ مَالا فَلَيَقُولَنَّ بَلَى ثُمَّ لَيَقُولَنَّ أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ

رَسُولًا فَلْيَقُولَنَّ بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلا يَرَى إِلا النَّارَ ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلا يَرَى إِلا النَّارَ فَلْيَتَّقِيَنَّ أَحَدُكُمْ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ)[٦٥].

والصدقة في السر تطفئ غضب الرب ومن الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما حدث بذلك النبي ﷺ: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).[٦٦]، ولا يخفى ما هذا الفضل من دلالة على النجاة من العذاب. كما جاء في صيام التطوع ما يفيد ذات المعنى: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا). [٦٧]

## الخاتمة:

وفي ختام البحث أدلي ببعض ما توصلت إليه من نتائج، وأوجزها فيما يلي:

ـ مكانة العمل التطوعي من الإيمان المعروف على معتقد أهل السنة والجماعة، فإنه كما تبين من جملة النصوص الشرعية التي أبرزت أثره على الإيمان أن له مكانة قوية وثابتة في تحقيق الإيمان من جهة ارتباطه بأصل التصديق ولازمه من العمل الواجب، فهو يعبر عن ثمرة مكملة لحقيقة الإيمان ولازما لأسسه من جهة ما يضيفه من قوة على أصله من التصديق.

ـ أثر العمل التطوعي على الإيمان يظهر من مناح عدة، أهمها وأبرزها أثره على حقائق التصديق من جهة ما يضفي القيام به على التصديق من قوة وثبات.وهذا ظاهر في النصوص التي تأمر بالإنفاق كما تقدم في ثنايا البحث.

ـ ارتباط العمل التطوعي بالعمل الواجب على أنه مكمل له ومتمم لما نقص منه يؤكد على أهميته ويوثق تحقيقه للإيمان مؤثرا ثابتا في حقائق الدين، وذلك لأن العمل الصالح عند أهل السنة والجماعة ركنا في الإيمان وشطرا في حقيقته.

ـ ويكفي في بيان فضيلة العمل التطوعي الإيمانية ما يترتب عليه من أحكام على جهتي الوعد والوعيد، فالعمل التطوعي له رسوخ في مصاف الأعمال الإيمانية إلى جانب الواجبة منها التي ثبت فيها الوعد في حق من قام بها امتثالا ورغبة في

الأجر والثواب. كما أن له بروزا مشرقا في أحكام الإيمان من حيث ماله من فضل في دفع الوعيد ومنع إنفاذه في حق من استحقه تفضلا من الله.

وبعد فإني احمد الرب تعالى أن يسر لي إعداد هذا البحث فأسأل الله أن يتقبله مني وأن يكون فردا نافعا في جملة الأبحاث المنشورة في المجلة وأن يجزي القائمين عليها خير الجزاء.

## هوامش البحث:

[١] الخوارج فرقة ظهرت على أقرب الأقوال بعد معركة الجمل حين قبل علي ﷺ التحكيم في قضية الصلح بين جيشه وجيش معاوية ﷺ، فحكموا بكفره إن لم يجدد إسلامه وقالوا قبل التحكيم في كتاب الله لا حكم إلا لله، فقال علي ﷺ مقولته الشهيرة: كلمة حق أريد بها باطل، ومجمل آراء هذه الفرقة يتلخص في تكفير مرتكب الكبيرة وإباحة دماء وأموال المخالفين وقد حاربهم علي ﷺ في معركة النهروان، وانقسمت فرقتهم إلى عدد من الفرق انتهى أثر غالبيتها إلا فرقة الإباضية. الاستقامة لابن تيمية: ٢٥٨. الصفدية: ٣١٣. جامع الرسائل، لابن تيمية: ( ٨١/١).

[٢] المرجئة فرقة ظهرت في مقابل غلو الخوارج حيث ظهرت كرد فعل لقول الخوارج في الإيمان وموقفهم المتشدد من العمل، فأرجأت هذه الفرقة العمل عن الإيمان وحكمت بإيمان من لم يأت بالعمل، وكان أول ظهورها في حماد بن أبي سليمان الذي عرف الإيمان بأنه قول القلب واللسان، وأرجأ العمل عن الإيمان، وتلته عقائد الكلابية والأشاعرة والماتريدية، ولكنه زادوا على مقولته بأن جعلوا الإيمان هو تصديق القلب والقول ليس شطرا وإنما شرطا لإجراء الحكام الدنيوية. انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية: ١١٥، مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ( ١١٨/٧).

[٣] الواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه وقيل ما يجب بتركه العقاب وقيل ما لا يجوز العزم على تركه وقيل ما يصير المكلف بتركه عاصيا وقيل ما يلام تاركه شرعا: المستصفى في علم الأصول، الغزالي- (٦٩/١)

[٤] المستحب هو المندوب حيث وصفه بالندب ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه: شرح الورقات، صالح آل الشيخ (٣٦/١)

[٥] أخرجه البخاري: باب التواضع، رقم: ٦٥٠٢.

[٦] الصحاح: (٢٣/١).

[٧] درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: (٢٣٢/٣ )، انظر كلام الشافعي: معرفة السنن والآثار، للبيهقي: ١٩٢. وكلام سفيان الثوري في شرح السنة، المزني: ٤١، وسنن الترمذي: (٣٩١/٤). وكلام الإمام مالك في حلية الأولياء، الأصبهاني: (٣٢٧/٦).

[٨] أخرجه البخاري، باب سؤال جبريل النبي، رقم: ٥٠، وأخرجه مسلم في الصحيح، باب معرفة الإيمان والإسلام، رقم: ١٠٢.

[٩] شرح السنة، المزني: (٧٨/١).

[١٠] انظر إقامة الدليل على إبطال التحليل، أبن تيمية: (٣٧٦/٤). الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية: ١٤.

[١١] الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض: (٢٤/٢).

[١٢] مجموع الفتاوى، لابن تيمية: (٢٩٠/١٠). وانظر: (١٤٨/١٥). وانظر المعرفة في الإسلام، د/عبد الله القرني: ١٢٤.

[١٣] أورده البخاري في باب قول الله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك من ربك)

[١٤] انظر مختار الصحاح، الزبيدي: ١٩. انظر المفردات: ٣١٠.

[١٥] انظر المفردات، الأصبهاني: ٣١١.

[١٦] تفسير السعدي: ٦٤.

[١٧] تفسير الطبري (٣٨١/١٤).

[١٨] تفسير ابن كثير (١٨٤/٤)

[١٩] أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة قل أعوذ برب الفلق.

[٢٠] انظر العقيدة الواسطية، لابن تيمية: ٢٤.

[٢١] شرح السنة، المزني: (٧٨/١).

[٢٢] صحيح البخاري، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم:١٤.

[٢٣] الشفا في تعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض: (٢٩/٢).

[٢٤] تفسير ابن كثير: (٤٨٥/١). انظر السنة لأبي بكر بن الخلال: (٢٩٠/٣).

[٢٥] متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان- باب أمور الإيمان، حديث رقم:٩. ومسلم في باب بيان عدد شعب الإيمان، رقم: ٣٥.

[٢٦] متفق عليه أخرجه البخاري: باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا، رقم: ١٧٦٨. ومسلم باب الترغيب في الدعاء والذكر، رقم: ٧٦٠.

[٢٧] التمهيد، ابن عبد البر: (٢٤٨/٩).

[٢٨] صريح السنة:٢٥.

[٢٩] القصيدة للإمام: محمد بن أحمد السفاريني، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود: ٦٨.

[٣٠] المرجع السابق: ١٢٢.

[٣١] المرجع السابق: ١٨٦.

[٣٢] الفوائد، ابن القيم: ١٧٣.

[٣٣] متفق عليه أخرجه البخاري في: كتاب الإيمان- باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم:٥٢. وأخرجه مسلم: باب من استبرء لدينه وعرضه، رقم: ٥٢.

[٣٤] جامع العلوم و الحكم، ابن رجب: ٢١٠.
[٣٥] متفق عليه أخرجه البخاري: باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم: ٥٥٦٠. وأخرجه مسلم: باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم: ١٨٥.
[٣٦] فتح الباري، ابن حجر: (٤٤٦/١٠)
[٣٧] تقدم تخريجه.
[٣٨] الإيمان لابن مندة: (٢٣٢/١).
[٣٩] تقدم تخريجه.
[٤٠] متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه:كتاب الشروط- باب ما يجوز في الاشتراط، رقم الحديث:٢٧٣٦. ومسلم، باب في أسماء الله تعالى، رقم: ٦٩٨٦.
[٤١] درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية: ( ٣٣٣/٣).
[٤٢] أخرجه البخاري:باب وصاة النبي، رقم: ٦٧٢٤.
[٤٣] تفسير الطبري : (٢٢٨/١٩)
[٤٤] متفق عليه: أخرجه البخاري، من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم:١٢. وأخرجه مسلم: باب الدليل على أن من خصال الإيمان ان يحب لأخيه المسلم، رقم: ١٧٩.
[٤٥] شرح ابن بطال لصحيح البخاري: (٦٥/١).
[٤٦] متفق عليه أخرجه البخاري: كتاب الحيض- باب ترك الحائض الصوم، رقم الحديث:٣٠٤.وأخرجه مسلم، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، رقم: ٢٥٠.
[٤٧] شرح النووي لصحيح مسلم: (١٧٦/١)
[٤٨] أخرجه البخاري، باب الصدقة قبل الرد.
[٤٩] جامع العلوم والحكم، ابن رجب: ١٥٩.
[٥٠] المرجع السابق.
[٥١] فتاوى شيخ الإسلام: (٢٢٥/٢).
[٥٢] أخرجه البخاري: باب التواضع، رقم: ٦٠٢١. وكتاب التوحيد- باب ويحذركم الله نفسه، رقم الحديث: ٦٩٧٠.
[٥٣] فتح الباري، ابن حجر: (٣٤٣/١١).
[٥٤] رواه الترمذي في: كتاب الأحكام- باب في الوقف،رقم الحديث:١٣٧٦، وقال:حديث حسن صحيح:(٦٦٠/٣).
[٥٥] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: (٢٢١/٥).
[٥٦] أخرجه ابن حبان في صحيحه، (٩٦/٢). وبنحوه البخاري: باب أي الرقاب أفضل.رقم:٢٣٣٤.
[٥٧] أخرجه البخاري، (٢٧٤/٦).
[٥٨] أخرجه مسلم: (٢٤٩/١٤).

[٥٩] انظر :الفتاوى:(٧/٤٨٧،٥٠١).
[٦٠] متفق عليه أخرجه البخاري، باب حديث الغار، رقم: ٣٢٠٨: (١١/٢٨٦) ومسلم: باب فضل من سقى البهائم المحترمة، رقم: ٥٩٩٨.
[٦١] أخرجه البخاري: باب حسن التقاضي، رقم: ٢٢١٦.
[٦٢] متفق عليه أخرجه البخاري، باب فضل التهجير إلى الظهر، رقم: ٦١٥. صحيح مسلم: باب بيان الشهداء، رقم: ٥٠٤٩.
[٦٣] متفق عليه أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم ٥٩٩٥، ومسلم باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم: ٦٨٦٢.
[٦٤] أخرجه ابو داود (٤/٢٤)، وفي سننه ابن ماجه (٣/٤٩٠)، صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: ١١١٤٠.
[٦٥] متفق عليه أخرجه البخاري، باب الصدقة قبل الرد، رقم: ١٣٢٤. ومسلم باب الحث على الصدقة، رقم: ٢٣٩٥.
[٦٦] متفق عليه أخرجه البخاري، باب الصدقة باليمين، رقم: ١٣٣٤. ومسلم: باب فضل إخفاء الصدقة، رقم: ٩١.
[٦٧] متفق عليه أخرجه البخاري، باب فضل الصوم في سبيل الله: (٩/٤٣٣). ومسلم، باب فضل الصيام في سبيل الله، رقم: ٢٧٦٧.

## فهرس المراجع:


ـ الإيمان لابن مندة- الإيمان- أحمد بن تيمية- تحقيق:محمد ناصر الدين الألباني- الطبعة الخامسة:١٤١٦ـ المكتب الإسلامي.
ـ الإيمان، محمد بن إسحاق بن مندة- تحقيق: علي الفقيهي- الطبعة الأولى- إحياء التراث الإسلامي.
ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضي الزبيدي- دار مكتبة الحياة.
تفسير السعدي( تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)- عبد الرحمن السعدي- الطبعة الأولى:١٤١٩ـ دار المغني للنشر، الرياض.
ـ تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن)- محمد بن جرير الطبري- الفيصلية: مكة المكرمة.
ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير- الطبعة الرابعة:١٤١٨ـ مؤسسة الريان،لبنان.
ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد و ابن عبد البرـ طبعة وزارة الأوقاف في المغرب.
ـ جامع العلوم والحكم،لابن رجب- تحقيق:شعيب الأرنؤوط- الطبعة الرابعة:١٣٩٣ـ مصطفى البابي الحلبي.

ـ درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن تيمية - تحقيق: محمد رشاد سالم- مكتبة ابن تيمية.
ـ سنن ابن ماجة- تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي- دار الكتب العلمية بيروت.
ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني- تحقيق:محمد عوامة- الطبعة الأولى:١٤١٩- مؤسسة الريان بيروت.
ـ شذرات الذهب من أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي- طبعة جديدة- دار إحياء التراث العربي، بيروت
ـ سنن الترمذي، للإمام أبي عيسى بن سورة الترمذي- تحقيق:أحمد محمد شاكر ـ دار الحديث القاهرة.
ـ صحيح البخاري،محمد بن إسماعيل البخاري، المطبوع مع فتح الباري، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي- مكتبة الرياض الحديثة.
ـ صحيح مسلم بشرح النووي- ١٤٠١ـ دار الفكر.
ـ صريح السنة،للإمام أبي جعفر الطبري- تحقيق:بدر معتوق- الطبعة الأولى ـ دار الخلف للكتاب الإسلامي.
ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني- محمد فؤاد عبد الباقي- مكتبة الرياض الحديثة.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور- تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون- دار المعارف، بيروت.
ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام، تحقيق:عبد الرحمن قاسم وابنه محمد- الطبعة الأولى:١٣٨١- مطابع الرياض.
ـ مختار الصحاح، محمد عبد القادر الرازي، تحقيق: عبد الفتاح البركاوي- طبعة جديدة- المكتبة التجارية مصطفى أحمد الباز، دار المنار.
ـ المعرفة في الإسلام، د/عبد الله القرني- الطبعة الأولى:١٤١٩ـدار عالم الفوائد.
ـ المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين بن راغب الأصفهاني- تحقيق:محمد سيد كيلاني- دار المعرفة بيروت.
ـ درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن تيمية الحراني- تحقيق: محمد رشاد سالم- مكتبة ابن تيمية.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة الثانية.
- شرح صحيح البخارى- لابن بطال، المؤلف: أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، مكتبة الرشد - السعودية، الطبعة الثانية تحقيق:ياسر بن إبراهيم
ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، عياض اليحصبي ٥٤٤هـ.